الفصل الثانى والعشرون

عمرة القضاء

ركب المسلمين إلى مكة - جلاء قريش عن مكة - نزول المسلمين بها - طواف محمد ﷺ وهرولته - زواج محمد من ميمونة - رغبته إلى قريش أن يعرس بمكة ورفضهم ذلك - إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة.

خروج المسلمين إلى مكة:

استدار العام بعد الحديبية، وأصبح محمد ﷺ وأصحابه فى حلّ بعهدهم مع قريش من الدخول إلى مكة ومن زيارة الكعبة. لذلك نادى الرسول فى الناس كى يتجهزّوا للخروج إلى عُمْرة القضاء بعد أن مُنعوا من قبلُ منها. ومن اليسير عليك أن تقدّر كيف أقبل المسلمون يُلَبُّون هذا النداء ومنهم المهاجرون الذين تركوا مكة منذ سبع سنوات، ومنهم الأنصار الذين كانت لهم مع مكة تجارة وبهم إلى زيارة البيت الحرام هوى. لذلك زاد الركب إلى ألفين بعد أن كان ألفًا وأربعمائة فى العام الذى سبقه، وتنفيذًا لعهد الحديبية لم يحمل أحدٌ من هؤلاء الرجال سلاحًا إلا سيفًا فى قِرابه. ولكن محمدًا كان يخشى الغدر دائمًا. فجهّز مائة فارس جعل على رأسهم محمد بن مَسْلَمة، وبعثهم طليعةً له على ألاّ يتخطّوا حرم مكة، وأن ينحدروا إذا هم بلغوا مَرَّ الظَّهران إلى واد قريب منها. وساق المسلمون الهَدْى أمامهم ستين ناقة وقد تقدّمهم محمد ﷺ على ناقته القصواء، وساروا من المدينة يحدوهم شغف أىُّ شغف بالدخول إلى أمّ القرى والطواف ببيت الله، ويرقب كل واحد من المهاجرين أن يرى البقعة التى وُلد فيها، والبيت الذى شبَّ عن الطوق بين جدرانه، والأصحاب الذين غادر، وأن يتنسم عَرْف هذا الوطن المقدّس وأن يلمس فى إجلال وإعزاز ثرى القرية المباركة الميمونة التى أنجبت الرسول والتى نزل فيها أوّل ما نزل من الوحى. وتستطيع أن تتصوّر هذا الجيش من المسلمين وعِدتهم ألفان يغذّون سيرهم تطِفر[1] أمامهم قلوبهم وترقص جَذَلاً أفئدتهم؛ فإذا أناخوا جعل كلٌّ منهم يقصُّ على أصحابه آخر عهده بمكة أو أيّام طفولته بها، أو يحدّث عن أصدقائه فيها، أو عن المال الذى ضحى به فى سبيل الله عند هجرته منها. تستطيع أن تتصور هذه المظاهرة الفذة من نوعها، يُزْجِى سيرها الإيمانُ، ويجذِب أصحابها إليه بيت جعله الله مَثَابةً للناس وأمْنًا. إنك إذًا لترى بعين بصيرتك أىّ طرب كان يستخفّ هؤلاء الذين حيل بينهم وبين هذا الفرض المقدّس إذ يسيرون إليه ليدخلوا مكة آمنين، ومحلّقين رءوسهم ومقصّرين، لا يخافون.

---

(١) الطفر: الوثوب.

إجلاء قريش عن مكة:

وعرفت قريش بمَقْدَم محمد وأصحابه، فجلَت عن مكة، نزولاً على صلح الحديبية، وصَعِدت فى التلال المجاورة لها حيث ضربت الخيام، وحيث أوى منهم من أوى إلى فَىء الشجر. ومن فوق أبى قُبَيْس وحِرَاء، ومن فوق كل مرتفع مطل على مكة، أطلَّ هؤلاء المكّيون ينظرون بعيون كلها تطلع إلى الطريد وأصحابه داخلين بلد البيت الحرام لا يصدُّهم عنه صادٌّ، ولا يحول بينهم وبينه حائل.

المسلمون أمام البيت الحرام - الطواف بالكعبة:

وانحدر المسلمون من شمال مكة وقد أخذ عبد الله بن رَوَاحةَ بخِطام القَصْواءَ، وأحاط كبار الصحابة بالنبىّ عليه السلام. وسارت الصفوف من خلفهم ما بين راجل ومقتعد غاربَ بعيره. فلما انكشف البيت الحرام أمامهم، انفرجت شفاه المسلمين جميعاً عن صوت واحد منادين: لَبَّيْك لَبَّيْك! متوجهين بالقلوب والأرواح إلى وجه الله ذى الجلال، محيطين فى هالة من رجاء وإكبار بهذا الرسول الذى بعثه الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله. والحق أنه كان مشهداً فذًّا من مشاهد التاريخ التى اهتزت لها أرجاؤه، والتى جذبت إلى الإسلام قلوب أشَد المشركين صلابة فى وثنيته وفى عناده. وعلى هذا المشهد الفذّ كانت تقع عيون أهل مكة. وهذا الصوت المنبعث من القلوب يُدَوّى: لَبَّيْك! لَبَّيْك، كان يخترق آذانهم فيهزُّ قلوبهم هزًّا. ولما بلغ الرسول المسجد اضطبع[1] بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال: اللهم ارحم امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوّة. ثم استلم الركن عند الحجر الأسود وهَرْوَل وهَرْوَل أصحابه معه، فلمَّا استلم الركن اليمانىّ مشى حتى استلم الحجر الأسود مُهَرْوِلاً من جديد ثلاثة أطواف ومشى سائرها. والألفان من المسلمين يهرولون كلما هرول، ويمشون كلما مشى. وقريش تنظر من فوق أبى قُبَيْس، فيأخذها لهذا المنظر البَهْر[2] من كل مكان، وتشهد أنها، وكانت تحدّث عن محمد وأصحابه أنهم فى عُسر وشدّة وجهد، قد رأت ما يمحو من أفئدتها كل وهم بوَهْنِ محمد وأصحابه. وفى حماسة هذه الساعة أراد عبد الله بن رَوَاحة أن يقذف فى وجه قريش بصيحة حرب؛ فصدّه عمر، وقال له الرسول: «مَهْلاً يا ابن رَوَاحة وقل لا إله إلا الله وحده، نصر عبده وأعزّ جنده. وخذَل الأحزاب وحده» أو كما قال؛ فنادى بها ابن رواحة بأعلى صوته، وردّدها المسلمون من بعده، فتجاوبت بأصدائها جوانب الوادى، وارتفعت رهبتها إلى قلوب الذين تسَنَّموا الجبال حوله.

---

(١) الاضطباع: أن يأخذ الإنسان الإزار أو البرد فيجعل وسطه تحت إبطه الأيمن ويلقى طرفيه على كتفه اليسرى من جهتى صدره وظهره.

(٢) البهر: التعب.

ثلاثة أيام بمكة:

ولما أتمَّ المسلمون الطواف بالكعبة انتقل محمد على رأسهم إلى الصفا والمروة فركب بينهما سبعاً، كما كان يفعل العرب من قبل، ثم نحر الهَدْىَ عند المروة وحلق رأسه وأتمَّ بذلك فرائض العُمْرة. ولما كان الغد دخل محمد إلى الكعبة وبقى بها حتى صلاة الظهر. ولقد كانت الأصنام ما تزال تعمرها. مع ذلك علا بِلالٌ سقفها وأذَّن فى الناس لصلاة الظهر عندها. وصلى النبى يومئذ بألفين من المسلمين صلاة الإسلام عند البيت الذى كان يُصَدّ من سبع سنين عن الصلاة عنده. وأقام المسلمون بمكة ثلاثة الأيام المفروضة فى عهد الْحُدَيْبية، وقد خلت أمُّ القُرَى من أهلها. فجلس المسلمون خلالها لا يصيبهم فيها أذىً ولا يعترضهم أحد بسوء. والمهاجرون منهم يزورون دورهم ويُزِيرون أصحابهم من الأنصار إيَّاها. وكأنما هم جميعاً أصحاب هذا البلد الأمين؛ وكلهم يسير سيرة الإسلام يُؤَدِّى إلى الله كل يوم صلواته فيقتل فى نفسه غرورها، ويُعين قويهم ضعيفَهم، وَيَبَرُّ غنيهم فقيرهم؛ والنبى ﷺ ينتقل بينهم أبًا محبًّا محبوبًا يبسم لهذا، ويمزح مع ذاك، ثم لا يقول إلّا حقًّا. وقريش وسائر أهل مكة يُطِلّون من منازلهم فوق السفوح على هذا المشهد الفذّ فى التاريخ، يرون رجالا هذه أخلاقهم، لا يشربون خمراً، ولا يأتون معصية، ولا يُغريهم الطعام ولا الشراب؛ ولا تفتنهم فى الحياة فتنة. لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. أىّ أثر يترك هذا المنظر الذى سما بالإنسان إلى ما فوق أسمى مراتب الإنسان؟! من اليسير عليك أن تقدّره حين تعلم أن محمداً عاد بعد ذلك بشهور ففتح مكة على رأس عشرة آلاف من المسلمين.

تزوج محمد ﷺ بميمونة - خروج المسلمين إلى المدينة:

كانت أمّ الفضل، زوج العبَّاس بن عبد المطلب عم النبىّ، موكّلة من أختها ميمونة فى تزويجها، وكانت ميمونة فى السادسة والعشرين من عمرها، وكانت خالة خالد بن الوليد. وأقامت أمّ الفضل زوجها العبَّاس مُقامها فى تزويج أختها. ولما رأت ميمونة ما رأت من أمر المسلمين فى عُمْرة القضاء هوتْ إلى الإسلام نفسها، فخاطب العبَّاس ابن أخيه فى أمرها وعرض عليه أن يتزوَّجها. وقبل محمد وأصدقها أربعمائة درهم. وكانت ثلاثة الأيام التى نص عهد الحُدَيْبية عليها قد انقضت، لكن محمدًا ﷺ أراد أن يتخذ من زواجه ميمونة وسيلة لزيادة فى التفاهم بينه وبين قريش. فلما جاءه سُهَيْل بن عمرو وحُوَيْطِب بن عبد العُزّى من قِبل قريش يقولان لمحمد: «إنه انقضى أجلك فاخرج عنا»، قال لهما: «ما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعامًا فحضرتموه» قال محمد ﷺ ذلك وهو يعلم ما تركت عمرة القضاء فى نفوس أهل مكة من أثر، كيف سحرتهم وسكّنت من خصومتهم، ويعلم أنهم إن قبلوا دعوته إلى الطعام فتحدّث إليهم وتحدثوا إليه

فتحت مكة أمامه أبوابها طائعةً. وهذا ما خشى سُهَيْل وحُوَيْطِب؛ لذلك كان جوابها: «لا حاجة بنا إلى طعامك فاخرج عنّا». ولم يتردَّد محمد ﷺ فى النزول على رأيهما تنفيذًا لعهده مع قومهما، فأذّن فى المسلمين بالرحيل، وخرج والمسلمون من ورائه. وخلّف أبا رافع مولاه على ميمونة حتى أتاه بها بسَرِفَ[1] فبنى بها. وميمونة أمّ المؤمنين آخر أزواج النبىّ. عُمِّرت بعده خمسين سنة، ثم طلبت أن تُدْفَن حيث بَنى بها رسول الله. وحمل محمد ﷺ أختى ميمونة: سَلْمَى أرملة عمه حمزة، وعمارة البِكْر التى لم تتزوج.

وبلغ المسلمون المدينة وأقاموا بها، محمد ﷺ لا يشكّ فى عظم ما تركت عُمْرة القضاء من أثر فى نفوس قريش وفى نفوس أهل مكة جميعًا، ولا يشك فيما سينشأ عنها من آثار سريعة خطيرة.

إسلام خالد بن الوليد:

وصدّقت الأيام تقديره؛ فإنه ما كاد يتحمَّل راجعًا إلى المدينة حتى وقف خالد بن الوليد، فارس قريش المُعْلَم وبطل أُحُد يقول فى جمع منها: «لقد استبان لكل ذى عقل أن محمدًا ليس بساحر ولا شاعر، وأنّ كلامه من كلام رب العالمين. فحقّ على كل ذى لُبٍّ أن يتبعه». وقد فزع عِكْرِمة بن أبى جهل لِما سمع، فرد قائلًا: لقد صَبَوْتَ يا خالد. ودار بينهما الحديث الآتى:

خالد : لم أصبُ ولكنى أسلمت.

عكرمة : والله إن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام لأنت.

خالد : ولم ؟

عكرمة : لأن محمدًا وضع شرف أبيك حين جُرِح، وقتلَ عمك وابن عمك ببدر. فوالله ما كنت لأسلم ولأتَكلَّم بكلامك يا خالد. أَمَا رأيت قريشًا يريدون قتاله؟!

خالد : هذا أمر الجاهليَّة وحميَّتها. لكنى والله أسلمت حين تبين لى الحق.

وبعث خالد إلى النبى ﷺ بأفراس وبعث إليه بإقراره بالإسلام وعِرفانه. وبلغ إسلام خالد أبا سُفيان، فبعث فى طلبه وسأله: أحقٌّ ما بلغه عنه؟ ولمّا أجابه خالد أنه حقٌّ، غضب وقال: «واللَّات والعُزَّى لو أعلم أن الذى تقول حقٌّ لبدأت بك قبل محمد». قال خالد: «فوالله إنه لحقّ على رغم من رَغِم». فاندفع أبو سفيان فى غضبه نحوه؛ فحجزه عنه عكرمة وكان حاضرًا وقال: «مهلًا يا أبا سفيان فوالله لقد خِفْتُ للذى خِفْتَ أن أقول مثل ما قال خالد وأكون على دينه. أنتم تقتلون خالدًا على رأى رآه وقريش كلها تبايعت عليه! والله لقد خفتُ ألّا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم». وخرج خالد من مكة إلى المدينة، فانضم إلى صفوف المسلمين.

---

(١) سرف: موضع قريب من مكة، اختلف فى تقدير ما بينها بين ستة أميال واثنى عشر ميلًا.

إسلام عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة:

وأسلم من بعد خالد عمرو بن العاص، وحارس الكعبة عثمان بن طلحة وقد أسلم بإسلام هؤلاء كثير من أهل مكة واتّبعوا دين الحق. وبذلك قويت شوكة الإسلام. وأصبح فتح مكة أبوابها لمحمد أمرًا لا محلّ لريبة فيه.